

## ثورة محمد العالم ١١١٢هـ (١٧٠٠م)

### "قراءة في الأسباب والنتائج"

أ. د. فهد بن محمد السويكت

قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الملك سعود

تولى السلطان إسماعيل حكم بلاد المغرب في عام ١٠٨٢هـ (١٦٧٢م)، واستمر في السلطة مدة تزيد على نصف قرن. وكانت مرحلة حكمه حافلة بالإنجازات العظيمة، تمكن خلالها من تحقيق انتصارات متعددة على الأجنبي المحتلين لثغور البلاد، كما تمكن من فرض الوحدة والأمن في أنحاء المغرب.

ومع ما تميز به حكم السلطان إسماعيل من فرض رقابة صارمة على من يحاول الإخلال بالأمن، فإن عهده قد تميز أيضاً بكثرة الثورات، وبخاصة من أفراد أسرته بل حتى من أبنائه. ومع أنه نجح في التغلب على جميع الثورات التي حصلت في عهده، فإن أشد ثورة واجهها عسكرياً ونفسياً كانت ثورة ابنه محمد المعروف بالعالم عام ١١١٢هـ (١٧٠٠م).

كان محمد العالم من أقرب وأحب أبناء السلطان إسماعيل إلى قلبه؛ فكان يقدره ويجله ويكرم العلماء من أجله، وأصبح

(قدم للنشر في ٢٠/١٠/١٤٣٥هـ، وقبل للنشر في ٢١/١/١٤٣٦هـ).

مستشاره الخاص وعينه التي يراقب بها الآخرين. ومع كل هذه الامتيازات فلم تشفع له عند والده عندما حصلت منه الثورة ورام الإطاحة بوالده فنال جزاءه.

حاولنا من خلال هذه الدراسة تتبع مراحل هذه الثورة بغية إلقاء الضوء على أهم مسبباتها في ظل سكوت جل المصادر المغربية عن ذكر أسبابها بشكل مرضٍ.

### تمهيد:

تولى السلطان إسماعيل بن الشريف حكم المغرب في عام ١٠٨٢هـ (١٦٧٢م) واستمر في السلطة حتى وفاته في عام ١١٣٩هـ (١٦٢٧م). وقد بلغت المغرب في عهده درجة كبيرة من الاستقرار والازدهار والبناء والتعمير خصوصاً في عاصمته مكناس التي شيد فيها عدداً من الصروح المعمارية والقصور والسرايا التي أسكن فيها أعداداً من حريمه وأبنائه.

اشتهر السلطان إسماعيل بكثرة حريمه وأبنائه واختلاف مشاربهم. ويبدو أنه شعر بأن كثرة أولاده وتعدد أمهاتهم ستكون سبباً في خلق الحساسيات الشديدة والأحقاد بينهم، وبخاصة في حالة تولي أحد الأبناء منصباً في الدولة وهو الأمر الذي سيثير الغيرة عند الآخرين منهم<sup>(١)</sup>. ولهذا كان

(١) تتحدث المصادر عن عدد أولاده من الذكور والإناث، فتشير إلى أرقام خيالية يصعب الأخذ بها، وربما تكون رواية الزياني هي الأقرب إلى الحقيقة من غيرها نظراً لمعاصرته لبعض أولاد السلطان وتوليهِ أمور نفقتهم. انظر:

بيعت بغالب أبنائه إلى سجلماسة موطن العائلة العلوية الأصلي، ويعطيهم الأراضي والإقطاعات لكي يعيشوا بعيداً عن جو القصر وعالم الحريم الملآن بالمؤامرات والدسائس.

قرر السلطان إسماعيل في وقت لاحق أن يعطي بعض أبنائه مسؤوليات أوسع في حكم الأقاليم المغربية، وكأنه يريد أن يخوض تجربة جديدة لا يعرف نتائجها؛ ففي سنة ١١١١هـ (١٧٠٠م) ولى ابنه أحمد الذهبي على تادلا وجعل تحت تصرفه ثلاثة آلاف من العبيد، ثم ولى عبدالمك على درعة ونواحيها وأعطاه خيلاً وعبيداً، وولى ابنه محمد العالم على إقليم السوس وزوده بعدد كبير من الخيل والعبيد، وولى آخرين أماكن أخرى<sup>(٢)</sup>.

كان السلطان إسماعيل وهو يوزع أعمال البلاد على أبنائه يظن أنه يقوم بعمل مجد في تهدئة الأوضاع بالمغرب، وأنه بذلك سيحول دون تجدد الأطماع في نفوس أبنائه، لكن الطمع سرعان ما تسرب إلى نفوس أولئك الأبناء الإخوة فشرع بعضهم في الاعتداء على حقوق بعض<sup>(٣)</sup>. يقول بعضهم: إن السلطان إسماعيل عمد إلى هذه الخطوة في

= Neant, N : *Relation de la Merci*, T.VI, Paris, S. I.H.M.D.F, 1724, p.660

الزياني، أبو القاسم: البستان الطريف في دولة أولاد مولاي الشريف، الريصاني، مركز الدراسات والبحوث العلوية، ١٩٩٢م، ص ١٨٧.

(٢) ستجري مناقشة تاريخ توزيع المناصب على أبناء السلطان إسماعيل لاحقاً.

(٣) العمراني، عبدالله: مولاي إسماعيل بن الشريف، حياته - سياسته - مآثره، تطوان، د.ن، ١٩٧٨م، ص ٦٠-٦١.

مسعى منه لمنع جنوحهم إلى الثورة<sup>(٤)</sup>. كما يشير بعضهم الآخر إلى أن الخطأ الكبير الذي ارتكبه السلطان إسماعيل عندما فرق أعمال البلاد على بعض أبنائه ولاةً ونواباً عنه فأثار فيهم نزعة السلطة والملك والطمع أن يخلف كل منهم أباه، ولكنهم كانوا جميعاً غير مؤهلين لذلك وربما يُستثنى عبدالله<sup>(٥)</sup>.

كان السلطان إسماعيل يحكم البلاد وفق سياسة عامة قائمة على أمور ثلاثة: تركيز السلطات بيده والحكم بطريقة مطلقة، وتكوين جيش قوي ومنظم والاعتماد عليه، والإشراف على الواردات المالية وتنظيم مصاريف الدولة<sup>(٦)</sup>.

أراد السلطان إسماعيل أن يثبت حكمه بواسطة أبنائه ولم يكن يعلم أنها بداية الفتنة التي كادت أن تزعزع المغرب مبكراً، إذ إنه لم تمض ثلاث سنوات على هذا الترتيب الجديد حتى كشف أبنائه أطماعهم الشخصية وبدؤوا في النزاع المسلح بينهم لينشغل بذلك السلطان سنين عديدة وهو يعالج فشل تلك التجربة التي خاضها والتي دفع كثير من المناطق، وبخاصة في مراكش والجنوب، ثمنها باهظاً.

(4) Brignon, Jean et autres: *Histoire du Maroc*, Casablanca, Hatier, 1967, p.246.

(5) غلاب، عبدالكريم: قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، ج ٢، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٥م، ص ٢٣.

(6) الفلاح العلوي، محمد: السلطان مولاي عبدالله واستقرار السلطة بالمغرب، جامعة مولاي علي الشريف الخريفية، أعمال الدورة الثانية، الريصاني، مركز الدراسات والبحوث العلوية، ١٩٩٠م، ص ٩٦.

كانت أشد هذه الثورات قسوةً على السلطان إسماعيل ثورة ابنه محمد العالم الذي يبدو أنه استعجل الأمر واستتباً موت والده فأعلن عليه الثورة في منطقة السوس. وهكذا فشلت سياسة السلطان في توزيع المناصب وتجرع بنفسه غصصها واضطر بعد ما يقرب من عشرين عاماً أن يعفي جميع أبنائه من ولاية الأقاليم<sup>(٧)</sup>.

### نشأة محمد العالم:

لا تسعفنا المصادر في تحديد تاريخ مولد الأمير محمد بن إسماعيل، غير أن أحد المصادر الفرنسية يذكر أنه ولد في مكناس عندما كان والده يحكم فيها نائباً لأخيه الرشيد<sup>(٨)</sup>.

ومعلوم أن إسماعيل قد حكم في مكناس خليفةً لأخيه إبان المدة ما بين ١٠٧٥هـ - ١٠٨٢هـ (١٦٦٤-١٦٧٢م)، وبناءً عليه يكون مولد محمد العالم تقريباً في المدة الواقعة بين هذين التاريخين.

توجد إشارات قليلة تفيد أنه أحد أكبر أبناء السلطان إسماعيل، وبعض المصادر تقول إنه الابن البكر لإسماعيل<sup>(٩)</sup>.

(٧) مولاي إسماعيل بن الشريف، ص ٢١٢-٢١٥.

(8) BABIN, Gustave : *Au Maroc par Les Camps et par les villes*, Paris, Bernard Grasset, 1912, p.88.

(9) Mémoire de J. B. ESTELLE, dans S.I.H.M.D.F. T. IV, Paris, p. Geuthner, 1931, p.296; RENAUD, H P.J: "*Médecine et médecins marocains au siècle de Moulay Isma'il*", Annales de L'institut d'études Oriental, T.III, 1937, p.102.

أما أمه فهي إحدى ضحايا القرصنة، أصلها مسيحية أسرت من قبل قراصنة الجزائر وأحضرت إلى مدينة الجزائر فاشتراها مندوبو السلطان إسماعيل عندما كان حاكماً لمكناس. قيل: إنها إسبانية من مدينة ملقا. وقيل: إنها جورجية، وقيل: إنجليزية. والأرجح أنها من جورجيا جاءت من تلك البلاد المشهورة بجمال نسائها. والداها مسيحيان سبق لهما تعميدها، وأجبرت بعد وصولها إلى حريم السلطان على إعلان إسلامها؛ لأن جمالها قد أغرى السلطان بالاقتران بها<sup>(١٠)</sup>.

عرف الأمير محمد بالعالم، واقترن هذا اللقب باسمه، وكان والده يحبه محبةً شديدة؛ لما رأى فيه من علامات النجابة وتوقد الذهن والتيقظ والمقدرة على حل الأمور وإبرامها والنصح لوأله، حيث كان يخبر أباه بما يخفيه وزرأؤه وكتابه وأولو الأمر في دولته حتى صار أمين سره ومستشاره دون سائر إخوته، يشاوره ويعمل برأيه في المهمات ويثني عليه بالصدق والأمانة ورجاحة العقل وينوه بقدره بمحضر ولاته ووزرائه وكتابه، فكرهه لذلك غير واحد من الوزراء ومن دونهم فشمروا لإفساد ذات البين بين الابن وأبيه<sup>(١١)</sup>. قال عنه القادري: "الفقيه الشريف العالم العلامة

(10) de Léon, Joseph: *Vie de Moulay Isam'il roi de Fés et de Maroc*, Paris, Geuthner, 1974, p.19; Defontin-Maxange: *Le grand Ismail empereur du Maroc*, Paris, Marpon et Cie, 1929, p.251.

(١١) بن زيدان، عبدالرحمن: إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، ج٤، طبعة ٢، الدار البيضاء، دن، ١٩٩٠م، ص٦١-٦٢.

المنيف الماجد الأسعد، الفارس الأنجد أبو عبدالله مولاي محمد بن مولاي إسماعيل ... كان ماهراً في علوم كالنجوم والبيان والمنطق والكلام والأصول وله مشاركة في علوم أخرى. وكان حريصاً على مجالسة العلماء لأخذ العلم منهم وبيالغ في تعظيمهم وإكرامهم وكان ينتحل الشعر وتهزه أريحية الأدب، قصده الناس بالقصائد والرسائل كثيراً<sup>(١٢)</sup>. كان والده السلطان إسماعيل يختار له كبار العلماء ليتدارسوا معه صباحاً ومساءً، وأكرم هؤلاء العلماء لأجله كثيراً، فأصبح ابنه محمد عالماً مشهوراً حاز إجازة كثير من العلماء<sup>(١٣)</sup>. وكان هو كذلك يجزل لأولئك العلماء الصلوات والأعطيات ولهم عنده جاه وحظوة ومراعاة<sup>(١٤)</sup>.

كانت حياة الأمير محمد العالم الأديب حافلة بالمناظرات العلمية والفقهية، وكثيراً ما قام وحده في أثناء المناظرات في وجه علماء فاس عندما يجمعهم للإقراء عليه فيقاسون معه الشدائد لذكائه وشدة فطنته، ولهذه الصفات السامية أعطي لقب العالم. وكان له أثر بارز في الميدان الثقافي وبخاصة في إقليم السوس طوال السبع سنوات التي قضاها هناك خليفة

(١٢) القادري، محمد: نشر المثنائي لأهل القرن الحادي عشر والثاني، ج ٢، الرباط، الجمعية المغربية للتأليف والنشر، ١٩٨٢م، ص ١٦٦-١٦٩.

(١٣) بن الحاج، أحمد: الدر المنتخب المستحسن في بعض مآثر أمير المؤمنين مولانا الحسن، ج ٧، ص ٢٢-٢٣ (مخطوط).

(١٤) القادري، محمد: التقاط الدرر ومستفاد المواظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٢م، ص ٢٩٦.

لوالده، حيث قرب إليه علماء تلك الناحية وأغدق عليهم من ضروب التشجيع والتكريم فصار نصيراً للأدب بينهم وباعثاً لنهضة أدبية كبيرة. كما كانت له آثار أدبية كثيرة نظماً ونثراً وحواش على بعض الكتب. كما ربطته صلات علمية ببعض علماء شنقيط وأدبائها<sup>(١٥)</sup>.

كان محمد العالم يتذوق الشعر ويتفاعل معه فيؤثر فيه، ومن نماذج شعره حينما حن لمدينة فاس قوله:

ألا ليت شعري هل أُسْرِحُ ناظري

وللإنس إقبال بوادي الجواهر

سقى الله أرواحاً بفاس عهدتها

تغازل أنواء الغيوث المواطر

وقال مخاطباً أخاه زيدان حينما كانا في حالة حرب بينهما:

أبلغ الزيدان عني آية

فسيوف العدل تشفي ذا العلل

كم لنا يابن العلامن وقعة

كان منا الفضل فيها لو عدل<sup>(١٦)</sup>

(١٥) الأخصر، محمد: الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، ١٩٧٧م، ص ١٤٨-١٥١.

(١٦) المشرفي، محمد: الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية، ج ١، الرباط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠٠٥م، ص ٢٩٠.



فإلى جانب بروزه في مجال الأدب كان له بروز في مجال العلم، إضافة إلى إتقانه فنون القتال المتنوعة وبراعته في استعمال أنواع الأسلحة المختلفة<sup>(١٧)</sup>.

### المناصب التي تولاها:

يبدو أن والده السلطان إسماعيل كان يثق بقدراته العسكرية أيضاً إلى جانب قدراته العلمية، ولهذا كلفه بمهام متعددة؛ فولاه نائباً عنه على مدينة فاس مدة تزيد على عشر سنوات (١٦٨٠-١٦٩٢م). ثم عزله عن حكمها بسبب تعلق أهل فاس بحبه؛ لأنه كان عاقلاً حكيماً عادلاً مع الجميع وعينه مع أخيه أبي النصر حاكماً في تافيلالت. وحينما قام أتراك الجزائر في عام ١٦٩٥م بالتدخل في شرق المغرب، كلفه والده بالتصدي لتحركاتهم ومراقبة تحركاتهم، وكان يزوده بالتعزيزات العسكرية اللازمة<sup>(١٨)</sup>.

حينما كان الأمير محمد العالم خليفة لوالده بتافيلالت نال إعجاب شرفائها وترك لديهم أفضل الذكريات بفضل عدالته، على العكس من أخيه أبي النصر الذي خلفه والده عليهم فلم يعجب شرفاءهم فاشتكوا لدى السلطان مطالبين بعودة محمد العالم إليهم<sup>(١٩)</sup>. ولكن السلطان إسماعيل حينما رأى ما أظهره ابنه من العدل والإنصاف ومحبة أهل الأقاليم التي قدر له أن ينوب عن والده فيها فنشر فضله وعطفه

(17) Defontin-Maxange: *Le grand Isma'il*, p.252.

(18) *Mémoire de J. B. ESTELLE*, pp.296, 385.

(19) Renaut: OP. Cit, p.102.

عليهم، وسار فيهم سيرة حسنة فعلاً صيته وارتفع قدره في أوساط البلاد، لما رأى ذلك كله نقله من تافيلالت وولاه على مراكش وأحوازها فأقام سنة العدل فيها ونشر الأمن والطمأنينة وسار على ما نهجه الشرع، فسعد الناس بولايته وتعلق الخاصة والعامة بمحبته وزادت شهرته وارتفع صيته أكثر، فحسده أصداده المقربون من والده ووشوا به عند أبيه فأوغروا صدره عليه واتهموه بما هو براء منه، فعزله عن مراكش وترك أهلها يبكون عليه إلى أن ثبتت براءته عند والده<sup>(٢٠)</sup>.

هذه إشارة ابن زيدان إلى الحسدة والوشاية بمحمد العالم في بلاط والده، ولا نعدم إشارات يذكرها بعض المعاصرين لتلك الأحداث سواء كانوا أسرى لدى السلطان أو مبعوثين وقتاصل، وتقتصر أطرافها فيما ذكر على مكائد نساء القصر وتتافس الإخوة فيما بينهم. ومن ذلك ما قيل من أن محمداً قد قرر إرسال هدية إلى والده حينما كان نائياً عنه في السوس، لكن أخاه أحمد الذهبي وهو من أم سوداء كانت تغار كثيراً من والده محمد شجعت ابنها على مصادرة الهدية وإرسالها من قبل ولدها إلى أبيه. وقد نتج من ذلك حدوث السباب والمعايرة بين الأخوين، فكل منهما يعير الآخر بأمه. فالذهبي يذكر أخاه بأنه ابن لمسيحية والآخر يذكره بأنه ابن لزنجية<sup>(٢١)</sup>. وبعضهم الآخر لا يعفي السلطانة زيدانة ذات

(٢٠) الإتحاف، ٦٢/٤.

(21) J. de Léon: Op. Cit, p.19.

التأثير البالغ في السلطان بصفقتها والدة أكبر أبنائه زيدان وكانت تحسد محمداً العالم على تفوقه ومحبة كثيرين له بما فيهم السلطان نفسه، حيث تمكنت من إقناع السلطان وادعاء خيانة والدة محمد وأنه لا بد من التخلص منها وإبعاد ابنها إلى مقاطعة تافيلالت لتبعد بذلك المنافسين عن ابنها زيدان. كما تكررت منها مكائد أخرى ضد محمد العالم بغية إزاحته من طريق ابنها دون أن يتمكن السلطان من معاقبتها حتى بعد أن ظهرت له براءة ابنه محمد<sup>(٢٢)</sup>.

### تعيينه خليفة في السوس:

اختلفت المصادر كثيراً في تاريخ تعيينه خليفة في السوس، فبعضهم يحدد ذلك بعام ١١١١هـ (١٦٩٩م)<sup>(٢٣)</sup>. وبعضهم الآخر يجعل تعيينه على السوس في عام ١٧٠٠م<sup>(٢٤)</sup>. في حين نجد ثالثاً يحدد تعيينه في شهر نوفمبر من عام ١٦٩٧م حين كلفه والده بالقضاء على ثورة بالسوس وظل نائباً للملك فيها<sup>(٢٥)</sup>. ويحدد القنصل الفرنسي بسلا في مذكراته شهري مايو ويونيو من عام ١٦٩٧م تواريخ لذكر أحداث ثورة السوس ضد السلطان إسماعيل ومن ثم قرار إرسال محمد العالم بعد ذلك إلى السوس لتهديئة أوضاعها<sup>(٢٦)</sup>.

(22) Defontin-Maxange: Op. Cit, pp.252-254.

(٢٣) الناصري، أحمد: كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج٧، الدار البيضاء، دار الكتاب، ١٩٥٦م، ص٨٩؛ الإتحاف، ٦٣/٤.

(24) Jean Brignon et autres: Op. Cit, p.246.

(25) S. I. H. M. D. F., T. IV, p.296.

(26) Mémoire de J. B. ESTELLE, pp.489, 509, 596.

إذا كان الناصري وابن زيدان وغيرهم يتفقون على جعل عام ١١١١هـ بداية توليه أمر السوس، فإن هناك من المؤرخين المحدثين من يشكك في هذا التاريخ ويجعل أمر تعيينه على إقليم السوس سابقاً لكل ما ذكر.

ففي دراسة حديثة عن العلاقة بين المخزن (الحكومة) والسوس ما بين سنتي ١٦٧٢-١٨٢٢م، نجد فيها رسائل من عبد المالك بن إسماعيل الذي كلفه والده بالتصدي للاضطرابات الحاصلة بإقليم السوس في أواخر عام ١١٠٦هـ (١٦٩٥م). وفي إحدى تلك الرسائل المؤرخة في عام ١١٠٧هـ (١٦٩٥م) ذكر لقدم المولى محمد العالم إلى السوس<sup>(٢٧)</sup>.

ويشير تقرير لقنصل فرنسا في سلا ESTELLE، وهو معاصر لتلك الأحداث إلى أن السلطان إسماعيل كلف ابنه محمداً مع أخيه أبي النصر في نوفمبر عام ١٦٩٧م بالقضاء على ثورة بالسوس وظل بعدها نائباً للملك فيها<sup>(٢٨)</sup>.

ومن خلال دراسة العلاقة بين المخزن والسوس توصل حنداين إلى أنه يمكن القول بأن مجيء المولى محمد إلى السوس كان في عام ١٦٩٥م من أجل القضاء على تمردات حصلت ما بين سنتي ١٦٩٥-١٦٩٧م. وبعد عودة الهدوء عاد إلى مكناس ليوليه السلطان بعد ذلك على السوس في نحو

(٢٧) حنداين، محمد: المخزن وسوس (١٦٧٢-١٨٢٢م)، الرباط، دار أبي

رقراق للطباعة والنشر، ٢٠٠٥م، ص ٢٨١.

(28) *Mémoire de J. B. ESTELLE*, pp.296, 596.

سنة ١١٠٩هـ (١٦٩٧م) في إطار تقسيم البلاد بين أبنائه<sup>(٢٩)</sup>. هذا التاريخ الذي توصل إليه حنداين (١١٠٩هـ) يختلف عما اعتاد المؤرخون المغاربة الأقدمون الإشارة إليه وهو عام ١١١١هـ، وقد اعتمد فيه على تواريخ لوثائق كتبها محمد العالم إلى بعض زعماء قبائل السوس. ومنها على سبيل المثال ظهير توقير واحترام لبعض الشخصيات السوسية يقول في آخره: "جددنا لهم حكم ما بأيديهم من ظهائر والدنا... في الثامن من ذي الحجة سنة تسع ومائة وألف"<sup>(٣٠)</sup>.

ورسالة أخرى مؤرخة في عام ١١١٠هـ (١٦٩٨م) من محمد العالم إلى أحد قضاة السوس، تدل على أن محمداً العالم كان والياً على السوس قبل عام ١١١١هـ. وتتوالى الرسائل التي تثبت أن محمداً العالم كان موجوداً في السوس قبل عام ١١١١هـ (١٦٩٩م)<sup>(٣١)</sup>.

يعود القنصل الفرنسي (ESTELLE) للحديث عن السوس بعد أن وصلها الأمير محمد العالم فيذكر أنه تمكن من تهدئتها وإعادة أهلها إلى الطاعة والتخلي عن حمل السلاح، وهو ما بعث الشكوك لدى والده من التوافق الذي حصل بين أهل السوس وابنه الذي أحب كثيراً هؤلاء الناس وتعامل

(٢٩) المخزن وسوس، ص ٢٨١.

(٣٠) نفسه، ص ٢٨٢ والرسالة كاملة عند المختار السوسي، محمد: خلال جزولة، ج٢، تطوان، المطبعة المهدية، د. ن، ص ٢٢١. (يقصد بظهير توقير: رسالة توضح فيها خصال ومزايا الشخص المرسل إليه).

(٣١) للاطلاع على الرسائل انظر: المخزن وسوس، ص ٢٨٣-٢٨٦؛ خلال جزولة، ٢/٢٢٢.

معهم باللطف والعدالة. وهذا ما مكنه من إعادة طاعة هذه المقاطعة لوالده، ولكن إخوته زيدان والحفيد قد لعبا ضده دوراً خبيثاً وتآمرا عليه عن طريق رسائل مزورة على لسانه، مع العلم أن المولى محمداً منذ أن حكم هذه المنطقة خضع سكانها له وحده دون إخوته وهذا ما جعلها تعيش في سلام في ظل حكومته<sup>(٣٢)</sup>.

### الثورة:

اختلف المؤرخون حول تاريخ بداية ثورة محمد العالم بالسوس على أبيه، فمنهم من ذكر أنها كانت في عام ١١١٢هـ (١٧٠٠م)<sup>(٣٣)</sup>. ومنهم من يذكر أنها كانت في ربيع الأول من عام ١١١٢هـ (١٧٠١م)<sup>(٣٤)</sup>. ومنهم من جعلها في عام ١١١٤هـ (١٧٠٢م)<sup>(٣٥)</sup>. أما المبعوث الفرنسي (Le père N. Néant) الذي قام بعدة رحلات إلى المغرب خلال السنوات ١٧٠٤، ١٧٠٨، ١٧١٢م، فقد أشار خطأً إلى أن الثورة كانت في عام ١٧٠٦م. وعلق ناشر تلك المذكرات السيد (Philipp de C. Brissac) على

(32) *Mémoire de J. B. ESTELLE*, pp.596, 611.

(٣٢) حركات، إبراهيم: المغرب عبر التاريخ، ج٢، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، ١٩٨٥م، ص٣٧؛ الضعيف، محمد: تاريخ الضعيف، تحقيق محمد الشخي، ج١، الدار البيضاء، دار الثقافة، ٢٠٠٧م، ص١٨٧؛ الحلل البهية، ٢٨٦/١: المخزن وسوس، ص٢٩١.

(٣٤) التقاط الدرر، ص٢٨٥؛ نشر الثاني، ١٤٣/٣.

(٣٥) المراكشي، عباس: الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، ج٥، فاس، دن، ١٩٣٨م، ص١٥؛ الاستقصا، ٩٠/٧: الكنسوسي، أحمد: الجيش العرمم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي، ج١، دن، ١٩٩٤م، ص١٤٥؛ البستان، ص١٨٢.

هذا الخطأ وأنه يجب تعديله إلى ١٧٠٠م؛ لأن الثورة، كما يقول، كانت في نهاية عام ١٧٠٠م وبداية عام ١٧٠١م<sup>(٣٦)</sup>.

إذا عدنا إلى بعض الدراسات الحديثة التي تناولت أوضاع منطقة السوس خلال حكم محمد العالم لها، نجد أنه منذ تعيينه ناصبته بعض القبائل السوسية العداء وجرت بينه وبين أحد قضاته البارزين - وهو محمد أمزوغار - عدة مراسلات بشأن تلك القبائل الثائرة، وكان محمد العالم في البدء يهددها من خلال رسائله إليهم، لكنه في النهاية ركن إلى أسلوب المفاوضات وتراجع عن أسلوب التهديد. وقد جاء في رسالة منه إلى قاضيه إشارة إلى أحداث مفاجئة وقعت في خضم الاستعدادات لحملة على القبائل المعارضة؛ ذلك أن أهل السوس قتلوا جماعة من رسل السلطان وبادلهم أتباع السلطان بقتل جماعة من أهل السوس بمراكش وأن السوس قد استقلت بنفسها. كتبت الرسالة منسوخ المحرم ١١١٢هـ (١٧٠٠م). ويتضح منها أن محمداً العالم قد غير من سياسته تجاه القبائل السوسية بعد إعلان استقلال السوس عن المخزن المركزي وفضل الاحتفاظ بقواه وجهوده العسكرية لتوحيد المغرب تحت سلطته، بعد أن كان خلال المدة السابقة ينفذ أوامر والده. ويمضي في رسالته إلى قاضيه قائلاً: "فإن الأمر على ما تقرر عندكم من أن سوس قد استقلت بنفسها ولم يبق لها البصر إلى الغرب أصلاً..."<sup>(٣٧)</sup>.

(36) *Relation de La Mérci*, p.687.

(٣٧) المخزن وسوس، ص ٢٨٩-٢٩٠.

يتضح من خلال هذه الرسالة أن أرجح الأقوال السابقة لتحديد تاريخ بدء ثورة محمد العالم هو نهاية شهر المحرم عام ١١١٢هـ (١٧٠٠م).

أما عن أسباب الثورة فإن أغلب المصادر لا تشير إلى أسباب واضحة، فالقادري أشار إلى أن محمداً العالم: "قام على والده منكرًا لما هو عليه من تكسيب العبيد والتصرف في بناتهم بغير وجه شرعي حقيقي، وخالف أمره وثار عليه حتى اهتز الغرب من أجله ومال الناس محبة فيه إليه"<sup>(٣٨)</sup>. ويوافق المشرفي القادري، إلى حد ما، في ذكر سبب الثورة، حين يقول: "كان المولى محمد ينكر على أبيه أمورًا ظن أنها تبيح له القيام عليه"<sup>(٣٩)</sup>. ولا نجد في المصادر أكثر مما ذكره القادري والمشرفي كأسباب مباشرة للثورة، فهل هناك أسباب أخرى أكثر إقناعًا مما سبق؟

إن قراءة أحداث الثورة بتمعن توحي بأسباب أخرى إلى جانب ما ذكر آنفًا، من ذلك ما قيل من أن محمداً العالم قد استغل انشغال والده في حروبه مع الأتراك بشرق البلاد في عام ١١١٢هـ (١٧٠٠م) وانهزامه هناك وفقده عددًا كبيرًا من خيرة قادته، وهذا ما جعل المولى محمداً ينتهز ظروف ضعف حكومة والده لإعلان ثورته ضده<sup>(٤٠)</sup>، مدعومًا برغبة من القبائل السوسية في مبايعته، ووافق ذلك هوى في نفسه،

(٣٨) نشر المثنائي، ١٧٢/٣.

(٣٩) الحلل البهية، ٢٨٦/١.

(٤٠) الحلل البهية، ٢٨٥/١؛ المخزن وسوس، ص ٢٩٢.



فبعث كتاباً لشيخه العلامة أبي عبدالله محمد المسناوي  
الدلائي<sup>(٤١)</sup> يستشيريه في أمر الثورة، فأجابه هذا الأخير  
برسالة ختمها بقصيدة منها<sup>(٤٢)</sup>:

مَهْلًا فَإِنْ لِكُلِّ شَيْءٍ غَايَةٌ  
والدهرُ يعكسُ حيلةَ المحتالِ  
والبدرُ ليس يلوح ساطع نوره  
والشمسُ بادية السنا في الحالِ  
فإذا توارت في الحجاب فعند ذا  
يَبْدُو بُدُوٌّ تَعَزُّزٌ وَكَمَالِ

والذي يظهر من معاني هذه الأبيات أن شيخه لم يوافق  
على الثورة، بل نصحه بالتريث حتى وفاة والده لكنه لم  
يستمع لنصحه.

ومن أسباب الثورة أيضاً ما ذكر من تعيين السلطان  
إسماعيل ابنه الشريف والياً على درعة، الأمر الذي لم يقبل  
به الأمير محمد لأنه يعد نفسه الوالي الشرعي لإقليم  
السوس، فثار على والده لأنه لم يقنع بما كان يحكمه من قبل  
أبيه ودعا لنفسه<sup>(٤٣)</sup>.

(٤١) محمد بن أحمد المسناوي (ت: ١١٣٦هـ / ١٧٢٤م): نشأ وتعلم بفاس  
فأصبح خطيباً وإماماً بالمدرسة البوعنانية ثم مفتياً وشيخ الجماعة  
بفاس. (الحلل البهية، ١/٢٨٦).

(٤٢) الحلل البهية، ١/٢٨٥-٢٨٦.

(٤٣) الاستقصا، ٩٠/٧: عباس المراكشي: الإعلام، ١٥/٥: الإتحاف،  
٦١/٤: مولاي إسماعيل، ص ٦١.

ولعل من أسباب الثورة ما تردد كثيراً عن وجود مؤامرات داخل قصر السلطان سواء كانت من وزراء ومستشارين لدى السلطان أو من جانب الحریم لصالح أبنائهم. فابن زيدان يشير إلى أن كثيراً من وزراء السلطان حسدوا ابنه محمداً وكرهوه حينما أصبح قلب أبيه قريباً منه جداً؛ لذلك شمر أولئك الوزراء لإفساد ذات البين بينه وبين والده والسعي في التفرقة بينهما وزينوا لوالده إبعاده وتوليته على درعة، فحصلت لهم أمنيته في إبعاده عنهم نظراً لإحصائه الأنفاس عليهم<sup>(٤٤)</sup>. كان محمد العالم يعلم جيداً بما يحاك ضده في بلاط والده ويعرف أن الوزير الیحمدي قد دافع عنه وفند أقاويل الوشاة، لذلك كتب إليه رسالة بليغة يشكره فيها ويثني عليه ويعدده بأنه لن ينسى له ذلك الفضل، كما يعدده بجزيل المكافأة. كتبها في الخامس والعشرين من شعبان عام ألف ومئة وخمسة (١١٠٥/٨/٢٥هـ)<sup>(٤٥)</sup>. ومن خلال هذه الرسالة يتبين وجود كثير من الحاقدين على المولى محمد لدى السلطان إسماعيل، الذي يظهر أنه كان يستمع لهم جيداً ويستجيب لرغباتهم.

أما مؤامرات نساء السلطان فقد تحدثت عنها المصادر أيضاً وبينت أن لنساء السلطان أثر في تشجيع أبنائهم على الثورة. فجوزيف دوليون (J.de Léon)، وهو معاصر لتلك الأحداث يشير إلى الخلاف الذي حصل بين محمد وأخيه

(٤٤) الإتحاف، ٦٢/٤.

(٤٥) نفسه، ص ٨٠.

أحمد الذهبي وتغيير كل منهما الآخر بأمه ويؤكد أن والده الذهبي كانت تؤمل من السلطان إسماعيل عزل محمد عن منصبه<sup>(٤٦)</sup>.

ويتفق (ESTELLE) مع رواية جوزيف دوليون بأن إحساس محمد بألم الموقف دفعه للهرب، فالتجأ إلى بعض المناطق البربرية وتزوج من ابنة لرئيسهم الذي وعده بالنصرة ضد والده، وهو ما سبب انزعاجاً كبيراً للسلطان لمعرفته بشجاعة هؤلاء الناس ووفرة السلاح لديهم<sup>(٤٧)</sup>. كما أن للسلطانة زيدانة<sup>(٤٨)</sup> والدة ابنه البكر زيدان أثر في التخلص من الحظوة التي كان يتمتع بها المولى محمد عند أبيه. فأصابع الاتهام تشير إلى أنها قد ثارت حفيظتها حينما جرى تعيين محمد نائباً لوالده في السوس، فدبرت له مكيدة عن طريق رسالة مزورة. ومع معرفة السلطان لاحقاً ببراءة ابنه محمد فإنه لم يتمكن من النيل من زيدانة التي تمكنت من امتصاص غضبه وتبرأت من ذلك العمل. ولذلك فإن محمداً أمام ضعف والده تجاه مكيدة السلطانة زيدانة قرر أن ينتقم لنفسه عن طريق الثورة<sup>(٤٩)</sup>. وأخيراً يذكر أحد الباحثين أنه

(46) J. de Léon: *vie de Moulay Isma'il*, p.19.

(47) *Mémoire de J. B. ESTELLE*, pp.297.

(٤٨) للا عائشة تدعى السلطانة زيدانة باسم ابنها زيدان. كانت أمة عند السلطان مولاي رشيد واشتراها منه مولاي إسماعيل. استولت على قلب السلطان بشكل غريب وأصبحت تتمتع بقوة شخصية وسلطة تصل إلى حد التحكم فيه وكانت تصاحبه في معظم تنقلاته. انظر:

S. I. H. M. D. F., T. IV, p.267, not.1.

(49) Defontin-Maxange: *Le grand Isma'il*, p.254.

لا يستبعد أن يكون لأم محمد الجورجية الأصل - وبحكم جمالها وخصالها - تأثير كبير على السلطان إسماعيل، وربما كانت هي وراء دفع ابنها إلى اعتلاء سدة الحكم حيث كانت في تنافس شديد مع أم المولى زيدان<sup>(٥٠)</sup>. ويذكر بعضهم أن السلطان إسماعيل طلب من ابنه محمد أن يخبره بأسباب ثورته فأجابته بأنه قد تلقى تهديدات من أخيه الذهبي وأمه وأنه سيواصل فتحه للمملكة<sup>(٥١)</sup>.

لا يمكن تجاهل دور منطقة السوس وقبائلها في تشجيع الثورات ضد الحكم المركزي؛ فقد حصل فيها عدد من الثورات ضد حكم السلطان إسماعيل قبل ثورة ابنه محمد وبعدها. وقد أشار آخرون إلى دور قبائل السوس وأعيانها وعلمائها في تشجيع محمد العالم على الثورة وتشكيلها سنداً قوياً لحركته ومحاربتها للحكومة المركزية وبخاصة عندما أصبحت أغادير هي العاصمة الاقتصادية لإمارة محمد العالم حيث كانت تلك القبائل تستفيد من النشاط التجاري مع الأوربيين. فالصراع القبلي في إقليم السوس خلال المدة من ١٦٧٢-١٨٢٢م كان يمثل عاملاً مشجعاً لكل تائر ضد المخزن بتأييد ومباركة من بعض قبائل المنطقة للثائر<sup>(٥٢)</sup>.

كانت الأمور قد استقرت في إقليم السوس بعد أن وصلها الأمير محمد العالم إلى عام ١١١٢هـ (١٧٠٠م) حين شجع

(٥٠) المخزن وسوس، ص ٢٩١.

(51) J. de Léon: Op. Cit, p.19.

(٥٢) المخزن وسوس، ص ص ١١٥، ١٨٢، ١٨٣.

السوسيون أميرهم بإعلان بيعته ومناصرته، يقول بعضهم: لأنه كان على سعة أفق علمي وثقافي<sup>(٥٣)</sup>. ولا يخفي بعض المبعوثين الأجانب الذين وصلوا إلى بلاط السلطان إسماعيل من أجل افتداء الأسرى التصريح بذلك وأنه ما إن وجد الأمير محمد الدعم والتأييد من أهالي السوس الذين شجعوه على نبذ طاعة والده حتى أعلن الثورة ونصب نفسه ملكاً على السوس واستولى على كل وارداتها المالية. بل إن التجار الأجانب الموجودين في أغادير (سانتاكروز) كانوا مؤيدين لثورة محمد العالم الذي منحهم امتيازات كثيرة وتمكن من إقامة علاقات متينة معهم ومنع أي تجارة بينهم وبين والده<sup>(٥٤)</sup>.

كانت السوس بيئة مناسبة للثورة، وكان محمد العالم يؤلب أهلها ضد حكومة والده عن طريق القيام ببعض الأعمال التحريضية مثل إحراق رسائل والده في محفل عام وسط فرحة كبيرة من المؤيدين للثورة، وكان يرمي من وراء هذه التصرفات إلى حشد تأييد واسع من أهل السوس ضد حكومة والده<sup>(٥٥)</sup>.

وإذا كان القادري هو الوحيد الذي أشار إلى مسألة الخلاف بينه وبين أبيه في مسألة تملك العبيد إذا لم يكونوا خالصي الحرية ولا من الرقيق الخالص العبودية وإنما هم

(٥٣) المغرب عبر التاريخ، ٢/٢٧.

(54) *Relation de la Mérci*, p.687.

(٥٥) المخزن وسوس، ص ٣١٨.

صنف متأرجح بين الحرية والرق وهم الذين كانوا أرقاء أيام السلطان السعدي أحمد المنصور، ثم تفرقوا في قبائل المغرب ومدنه فلم تعد مسألة عبوديتهم تتوافر على دليل واضح. فربما كان هذا سبباً من أسباب الثورة أيضاً. وبخاصة إذا علمنا أن طائفةً كبيرة من العلماء قد توقفوا في هذه المسألة كثيراً ولم يوافقوا السلطان على قراره بتملكهم. وإذا كنا نعرف جيداً أن محمداً ابن السلطان كان قريباً من العلماء، بل يعدّ منهم ولهذا يعرف بالعالم، فمن المرجح أنه كان له رأي في المسألة لم يكن موافقاً لرأي والده. يقول ابن زيدان: "أدرك درجة الاجتهاد فأداه اجتهاده إلى أن خرج عن طاعة والده"<sup>(٥٦)</sup>. ويذكر آخر أنه حظي بتعاطف حقيقي من فئة من المثقفين وعلماء الدين سواء بسوس أو من لدن مثقفي فاس. ومما لا شك فيه أن مساندة سوس لمحمد العالم تنطلق من الثقة التي وضعها فيه العلماء والمجموعة الواعية<sup>(٥٧)</sup>.

وقد أنشأ محمد العالم علاقات طيبة مع أهل السوس وخصوصاً مع فئة العلماء فكان يجالسهم في قصره بتارودانت ويستمتع لأدبهم وشعرهم. وكان ينظر إلى السوس على أنه إقليم فريد في المغرب، واعتمد على هذه الخصوصية عندما أراد أن يعلن استقلاله<sup>(٥٨)</sup>.

(٥٦) الإتحاف، ٦١/٤.

(٥٧) المغرب عبر التاريخ، ٢٨/٣.

(٥٨) المخزن وسوس، ص ٦٩/. (تقع تارودانت على بعد ٨٢ كم جنوب أغادير).

وأخيراً يقول الكنسوسي: "جل من ينتسب إلى العلم والصلاح بالسوس كانوا معه موافقين له ومؤيدين، وذلك رأيهم في تقيص الأمراء عند العامة ووصفهم بكثرة الجور وتشنيع قبح أفعالهم يستجلبون بذلك خواطر العامة لاستخدامهم"<sup>(٥٩)</sup>. وكان الكنسوسي يسمي محمداً العالم بالأحمق الجاهل.

تبقى في النهاية مسألة ولاية العهد التي لم يتطرق لها أحد بصفتها سبباً من أسباب الثورة، والتي لم يحسم أمرها السلطان إسماعيل ولم يسم أحداً من أبنائه برغم تطلعهم لذلك. ربما كان ذلك بسبب كثرة ثوراتهم عليه إبان حياته وطمعهم في السلطة وكثرة منافساتهم، ولعله لأنه لم يجد من بينهم من يصلح لذلك على كثرتهم، لذلك يذكر عنه أنه حينما حضرته الوفاة دعا رفيقه وعالم حضرته أبا العباس الوزير اليعمدي وطلب منه المشورة في اختيار من يصلح لولاية العهد من أبنائه، وبعد تردد طويل قال ذلك الوزير: "يا مولانا، إنه ليس لك ولد وإن وُلِدَ لك. فقال السلطان: صدقت..."<sup>(٦٠)</sup>. ولم يعين أحداً لولاية العهد.

فهل يكون تردد السلطان في حسم مسألة ولاية العهد منذ وقت مبكر من أسباب الثورة التي قام بها محمد العالم؟ وبخاصة أن إخوته الكبار زيدان وأحمد الذهبي تذكر عنهم المصادر كثرة تعاطيهم للخمر وعدم استقامتهم<sup>(٦١)</sup>.

(٥٩) الجيش العرمرم، ١/١٤٩.

(٦٠) الجيش العرمرم، ١/١٥٧.

(٦١) الجيش العرمرم، ١/١٥٧.

### حروبه مع والده:

لم يكن محمد العالم يريد من ثورته على أبيه أن يكون أميراً للسوس ونواحيها فقط، بل إن مشروعه يتجاوز ذلك إلى توحيد المغرب تحت سلطته. وكان هذا المشروع قد لازمه منذ توليته بفاس عام ١٦٨٠م وهو الوصول إلى العرش<sup>(٦٢)</sup>.  
وحيثما وصلت أنباء الثورة إلى السلطان إسماعيل استعمل كل أنواع السياسة والدهاء من أجل إقناع ابنه بالتراجع عن الثورة والعودة إلى طاعة والده، ولكن ابنه لم يقم بأي خطوة في هذا الاتجاه وكان دائماً يجيب والده بأن الشعب يتمناه ملكاً للبلاد بدلاً من والده وأنه يظن أنه لم يرتكب أي خطأ<sup>(٦٣)</sup>.

حين أعلن محمد العالم استقلاله عن سلطة والده، تمكن من تأسيس إمارة جديدة واسعة في إقليم السوس معتمداً في ذلك على المقومات البشرية والاقتصادية والطبيعية التي تزخر بها تلك المنطقة. وبدأ بعد ذلك بتكوين جيشه من القبائل السوسية مستفيداً من الموارد الاقتصادية بالمنطقة ومانعاً كل تعامل تجاري لها مع مناطق نفوذ والده. خصوصاً بعد تمكنه من احتلال أغادير في حدود عام ١١١٣هـ (١٧٠١م) وفتح التجارة مع الأوربيين<sup>(٦٤)</sup>.

عندما أدرك السلطان إسماعيل بأن جميع محاولاته لثني ابنه عن الثورة لم تثمر، جهز له حملة بقيادة ابنه الحفيد في عام ١١١٤هـ (١٧٠٢م)، لكن الحفيد انهزم بالقرب من

(٦٢) المخزن وسوس، ص ٢٩١.

(63) *Relation de la Mérci*, p.687.

(٦٤) المخزن وسوس، ص ٢٣٥، ٢٣٦، ٣٠٧، ٣٠٨.



أغادير. وبالرغم من المدد الذي أرسله له والده، فإنه لم يتمكن من الانتصار على محمد وأخيه أبي النصر الذي انضم إليه في ثورته، فعظم شأنه ووجه أخاه أبا النصر إلى درعة وتمكن من الاستيلاء عليها وطرد عبد المالك منها<sup>(٦٥)</sup>.

جرت بعد ذلك بين محمد العالم ووالده عدة مراسلات، منها رسالة من السلطان إسماعيل إليه يقول فيها: "الحمد لله وحده.. إلى من طغى وبغى وملاً الأرض بكيد نجوى... ما أنت إلا جاهل ومحارب تهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد... أنت والمحاربون الذين معك الذين نقضوا عهد بيعة توليتي أمر المسلمين. نستعين بالله على قتلكم وسفك دمائكم وأخذ أموالكم..."<sup>(٦٦)</sup>.

تمكن محمد العالم من تكوين سلطة قوية، وحرص على أن يبدو للناس في مظهر السلاطين الكبار على غرار الخلفاء المسلمين. وأسس المجالس الأدبية يجتمع فيها العلماء والأدباء والشعراء من السوس وفاس ومكناس وتجري فيها المناظرات والمساجلات والمناقشات حول أمور الدين والأدب وقرض الشعر وغير ذلك من مظاهر الجلسات السلطانية. وتقل صورته إلى العامة من خلال هذه المجالس كأمر للمؤمنين. فهو يكتب في رسائله: عبد الله تعالى أمير المؤمنين الناصر لدين الله محمد بن إسماعيل. ويجيبه قادته: مولانا الإمام وحامي حوزة الإسلام أمير المؤمنين الناصر لدين الله. كما اتخذ له خاتماً خاصاً متميزاً بشكله وما فيه عن خاتم والده، وامتدت إمارته لتشمل

(٦٥) الحلل البهية، ١/٢٨٦؛

Relation de la Mérci, pp.687-688.

(٦٦) المخزن وسوس، ص ٣١٧.

مناطق واسعة من جنوب البلاد<sup>(٦٧)</sup>، كما تمكن من قطع الطريق التجاري القادم من تمبكتو إلى الشمال الذي كانت تصل عبره شحنات من الذهب والعبيد إلى السلطان إسماعيل، ونجح في مصادرتها وتحويل الطريق إلى عاصمته تارودانت<sup>(٦٨)</sup>.

### استيلاؤه على مراكش؛

بعد مرور ما يقرب من سنتين من إعلانه الاستقلال، قرر محمد العالم أن ينتقل إلى مراكش، وتختلف المصادر في تحديد تاريخ معين لدخول محمد العالم مدينة مراكش واقتطاعها من سلطة والده؛ ففي الوقت الذي تكاد تجمع المصادر على أنه دخلها في عام ١١١٤هـ (١٧٠٣م)، فإن الاختلاف واقع في أي شهر حدث ذلك؟ فالقادي يذكر أن ذلك حدث في يوم عيد الفطر من عام ١١١٤هـ<sup>(٦٩)</sup>، في حين يذكر الكنسوسي والناصري أنه حاصر مراكش في رمضان ودخلها عنوة في العشرين من شوال<sup>(٧٠)</sup>. واكتفى بعضهم بذكر السنة ١١١٤هـ دون تحديد الشهر<sup>(٧١)</sup>. ولم تحدد المصادر الأجنبية شهراً معيناً لذلك وإنما اكتفى بعضها بذكر عام ١٧٠٣م وبعضها الآخر سكت عن السنة والشهر معاً<sup>(٧٢)</sup>.

(٦٧) نفسه، ص ٢٩٩، ٣٢٥ - ٣٢٦.

(68) Defontin-Maxange: *Le grand Isma'il*, p.254.

(٦٩) نشر المثنائي، ١٦٧/٣.

(٧٠) الجيش العرمزم، ١/١٤٥؛ الاستقصا، ٧/٩٠ ويتفق معهما ابن

زيدان: الإتحاف، ٤/٦٣؛ العمراني: مولاي إسماعيل، ص ٦١.

(٧١) الحلل البهية، ١/٢٨٧.

(72) J. de Léon: *Vie de Moulay Isma'il*, p.20; *Relation de la Mérci*, p.688.

أما كيفية دخول محمد العالم إلى مراكش فتنقسم الروايات في ذلك إلى فريقين، فترى المصادر المعاصرة لتلك الأحداث أن دخول مراكش كان سلمًا وأن غالبية سكان منطقة مراكش قد أيدوا ثورة محمد العالم وكرهوا حكم والده وأنه حينما دخلها أرسل رسالة لوالده يخبره بأنه قد حكم منطقة مراكش وأنه سيترك بقية المملكة لوالده<sup>(٧٣)</sup>.

ولا يختلف ما ذكره القادري عن هذه الرواية ويضيف أن المولى محمدًا دخل مراكش ومعه بعض قبائل المغرب وجيش الدولة الذين وجههم والده معه حينما عينه على السوس، ومعه أيضًا جمع من قبائل السوس يريد بهم الاستيلاء على المغرب<sup>(٧٤)</sup>.

أما الفريق الآخر فيرى أن محمدًا العالم قد دخل مراكش عنوة وقتل ونهب وقبض على كثير من عمال والده وقادة جيشه ووجههم للاعتقال بسجون تارودانت. وبعضهم يقول: دخلها دخول الفاتحين فقتل ونهب وسلب بعد أن اقتحمها عنوة بالسيوف<sup>(٧٥)</sup>.

لم يكن محمد وحده حينما دخل مراكش بل كان معه أخوه أبو النصر قائد جيشه. وقد انزعج السلطان إسماعيل كثيرًا لخروج مراكش عن سلطته ووعده أن احتلالها يشكل تهديدًا مباشرًا لحكومته وسلطته؛ لذلك لم يتوان عن الاستعداد بكل قواه للتصدي لأطماع ابنه. يقول المشرفي بهذا الصدد: "ولما وصل خبر استيلاء ابنه محمد على مراكش ضاقت الأرض بالسلطان إسماعيل بما رحبت فكان لا ينام ولا يلتذ بطعام.

(73) *Relation de la Mérci*, p.690; J. de Léon: Op. Cit, p.20.

(٧٤) نشر المثاني، ١٦٧/٢.

(٧٥) الجيش العرمزم، ١٤٥/١؛ الحلل البهية، ٢٨٧/١؛ الاستقصا، ٩٠/٧.

ثم عقد لولده المولى زيدان على جيش عظيم من الأحرار والوصفان (العبيد) ووجهه لمحاربة أخيه بمراكش<sup>(٧٦)</sup>.

استعد محمد العالم لحرب جيش والده الذي يقوده أخوه زيدان، وكلف أخاه أبا النصر بالتصدي لجيش زيدان وملاقاته قبل الوصول إلى المدينة فالتقى الجمعان بموضع يعرف بالرملة وكانت بينهما حروب انهزم فيها أبو النصر وتراجع نحو مراكش وتتبعه أخوه زيدان ولم يترك له الفرصة لاستجماع قواه فالتقى الجيشان مرة أخرى بمراكش، وتمكن زيدان من التغلب على إخوته مجبراً أخاه محمداً الثائر على الخروج من مراكش والانسحاب نحو عاصمته تارودانت بعدما بقي في مراكش حوالي ثلاثة أشهر<sup>(٧٧)</sup>. وترى بعض المصادر أن محمداً قد انسحب من مراكش قبل وصول زيدان إليها<sup>(٧٨)</sup>. ويذكر بعضهم أن زيدان قد فتح مراكش في السادس عشر من ذي الحجة عام خمسة عشر ومائة وألف (١٦/١٢/١١١٥هـ - ٢١/٤/١٧٠٤م)<sup>(٧٩)</sup>. وقيل في أول المحرم عام ١١١٦هـ / ٦/٥/١٧٠٤م<sup>(٨٠)</sup>. بقي زيدان في مراكش لترتيب أمورها وتحصينها بعد أن أذاق أهلها مر العذاب<sup>(٨١)</sup>.

(٧٦) الحلل البهية، ٢٨٧/١.

(٧٧) نشر المثاني، ١٤٥/٣؛ الحلل البهية، ٢٨٧/١.

*Relation de la Mérci*, p.691.

(٧٨) الجيش العرمرم، ١٤٥/١؛ الاستقصا، ٩١/٧.

(٧٩) الإتحاف، ٦٣/٤؛ الحياة الأدبية، ص ١٤٨.

(٨٠) البستان، ص ٢٠٦، هامش ٢٣٩.

(81) *Relation de la Mérci*, p.691.

### معركة تارودانت:

التجأ الأخوان محمد وأبو النصر إثر هزيمتهما في مراكش عام ١١١٥هـ / ١٧٠٤م إلى عاصمتها تارودانت. ويشير بعضهم إلى أن محمداً العالم طلب مساعدة فرنسا وإسبانيا غير أنهم تباطؤوا في ذلك. وخلال المدة الفاصلة بين معركة مراكش والتي انسحب على إثرها المولى محمد ومعركة تاو أو تاورا بسوس سنة ١١١٧هـ (١٧٠٥م) ظل السلطان إسماعيل يراقب باهتمام شديد ما يجري في السوس من محمد وأخيه، وعزم والدهما على تطويقهما من الجنوب<sup>(٨٢)</sup>.

حينما عاد محمد وأخوه إلى تارودانت في المحرم عام ١١١٦هـ، تمكن من جمع أنصار كثيرين من العرب والبربر وعظم أمره واشتدت شوكته. فتحرك أخوه زيدان من مراكش لتضييق الخناق عليه واستمرت الحرب بينهما قرابة الثلاث سنوات كانت أشد المعارك بينهما معركة تاورا في الرابع عشر من جمادى الأولى عام ١١١٧هـ (١٧٠٥م)<sup>(٨٣)</sup>.

كان محمد العالم قد وجه أخاه أبا النصر بحملة على تافيلالت وتمكن من هزيمة أخيه المأمون، فاستغل انتصاره ذلك للتصدي لزيدان، لكن هذا الأخير تلقى المزيد من الإمدادات من والده فتمكن من هزيمة أبي النصر<sup>(٨٤)</sup>. شعر محمد بالخطر يحيط به من جيوش زيدان فعزم على إبعاده عن منطقة السوس وجمع جيشاً عظيماً وجرت بينه وبين

(٨٢) المخزن وسوس، ص ٢٢٠ - ٢٢١.

(٨٣) الإتحاف، ٦٤/٤.

أخيه زيدان في عام ١٧٠٥م معركة دموية انتصر فيها زيدان، وفقد محمد خلالها ما يقرب من خمسة عشر ألفاً من مقاتليه، كما أسر من جيشه أعداد كبيرة أيضاً وكان من بين الأسرى أشهر قادته ويدعى مالك وهو الذي سبق له أن فتح مراكش.

بعث زيدان بأخبار المعركة والأسرى إلى والده فأدخل السرور العظيم على نفسه، إذ انتقم من القائد مالك وقتل وعذب وأساء إلى البقية من الأسرى<sup>(٨٥)</sup>.

أما المولى محمد وأخوه فقد لجأ إلى العاصمة تارودانت وتحصنا فيها. يقول المشرفي: "استمر القتال واشتد النزال وعظمت الأهوال وكثر مدد المولى زيدان من أبيه بجيوش المغرب فدخلت تخوم السوس واستولت على الرئيس والمرؤوس، ونزلت على حصن تارودانت وحاصرته من جميع الجهات نحو سبعة أشهر"<sup>(٨٦)</sup>.

مرة أخرى كان السلطان إسماعيل حريصاً على حقن الدماء بين أولاده، إذ تشير الأخبار إلى أنه قد أرسل لابنه الثائر محمد ابناً آخر يدعى مولاي الشريف لمحاولة إقناعه بالعودة عن ثورته، وعندما أدرك المولى الشريف أنه لن ينجح في مهمته انضم إلى أخيه الثائر وتحصن الإخوة الثلاثة (محمد وأبو النصر والشريف) داخل العاصمة تارودانت للدفاع عنها. وعندما طال الحصار رغب أبو النصر في

(85) Ibid, pp.691, 692.

(٨٦) التحلل البهية، ٢٨٧/١.

الصلح مع والده دون موافقة من المولى محمد العالم، الذي حينما عرف بذلك عزم على قتله، وهو ما أجبر أبو النصر على الفرار إلى الجبال.

وتمكن زيدان من إحداث فجوة في أسوار المدينة واستعد لاقتحامها، ولكن محمداً صمد وتصدى له وأجبره على التراجع ولاحقه خارج المدينة، وفي غمرة المعركة حينما أراد العودة إلى داخل الأسوار وجد أن أخاه الشريف قد أغلق جميع المنافذ والأبواب في وجهه. وحينما أدرك محمد الخيانة قرر الهرب ولكن العبيد من جيش زيدان تمكنوا من اللحاق به خارج المدينة والإمساك به دون أن يؤذوه مع أنه قاومهم بكل ما يستطيع. ثم قادوه إلى زيدان الذي استقبله بكل حفاوة وحزن على مصيره السيئ وبكى كل منهما وسالت دموعهما بغزارة<sup>(٨٧)</sup>.

إن أخبار الخيانة في جيش محمد العالم قد أكدها المشرفي بقوله: "حاصر زيدان حصن تارودانت إلى أن دخلته المحلة بدسياسة من مجاط أنصار المولى محمد. وقيل: دخلها عنوة فقتل الرجال والنساء والصبيان وقبض على المولى محمد وأخيه أبي النصر ووجههما لأبيه... وأواخر المحرم وقيل سادس عشر صفر عام ثمان عشرة ومائة وألف" (٤ إبريل أو ٣٠ مايو ١٧٠٦م)<sup>(٨٨)</sup>. ويؤكد القادري مسألة الانتقام والقتل الذي حصل في تارودانت من قبل زيدان فلم

(٨٧) تفصيلات معركة تارودانت عند:

*Relation de la Merci*, pp.692-693.

(٨٨) الحلل البهية، ٢٨٧/١: المخزن وسوس، ص ٢٢١. (مجات هي إحدى القبائل المناصرة لمحمد العالم).

يسلم منه الرجال والنساء والصبيان، إضافة إلى سبي أهلها ونهب أموالهم<sup>(٨٩)</sup>.

ومع كل هذه القسوة التي عانتها تارودانت من قبل زيدان وجيشه فإنه قد عامل أخاه بكل لطف ورفق. وحينما مثل بين يديه حن له وعانقه وهوّن عليه الأمر وأوصى برعايته، ثم سلمه إلى من يذهب به لأبيه بعد أن كتب له كتاباً يخبره بذلك<sup>(٩٠)</sup>. ويذكر NEANT أن زيدان قال له: بما أن الله قد أوقعك بين يدي فلن أعمل لك أي سوء ولكن لا أستطيع أن أمنع إرسالك إلى والدي الملك. ووعده بأنه سيعمل ما بوسعه للحصول على عفو له من والده. ثم كتب لوالده يخبره بما جرى من أحداث في مملكة السوس وبقبضه على أخيه وأنه سيرسله إليه على الفور ويرجوه في الوقت نفسه أن يعفو عن ثورته ويشمله برحمته<sup>(٩١)</sup>.

### نهاية محمد العالم:

رددت كثير من المصادر مسألة العفو عن محمد العالم حسب وعد من والده لابنه زيدان. من ذلك ما ذكره NEANT في مذكراته من أن السلطان إسماعيل كان في غاية السعادة عندما بلغته رسالة زيدان من تارودانت يخبره بانتصاره وقبضه على أخيه ويطلب منه العفو عنه. فأجابه السلطان برسالة ذكر فيها تهنئته له بالانتصار والوعد بأن المولى محمداً لن يناله سوء لأنه قد عفا عنه وأنه سيستقبل عند دخوله إلى

(٨٩) نشر المثنائي، ١٦٧/٣.

(٩٠) الإتحاف، ٦٤/٤.

(91) *Relation de la Mérci*, p.693.



مكناس استقبلاً حافلاً. وختم الرسالة بأنه يريد أن يزوج اثنين من أبناء محمد بفتاتين من بنات زيدان، وهو ما أدخل السرور البالغ في أبناء محمد عند تلقيهم ذلك الخبر<sup>(٩٢)</sup>.

يتأكد خبر الوعد بالعمو عن محمد العالم عند مصدر آخر يذكر أن زيدان لم يرسل أخاه إلا بعد وعد من السلطان إسماعيل بالعمو عنه واستقباله بالحفاوة والتكريم، حيث تجمع المحبون لمحمد العالم في أبواب مدينة مكناس لمشاهدة عودته ومصالحته مع والده<sup>(٩٣)</sup>. ويتأكد هذا الوعد من السلطان أيضاً عند بعض المصادر المغربية التي تذكر أن زيدان قد تردد في إرسال أخيه محمد إلى مكناس خشية مقتله واحتفظ به مدة أربعة أيام، وهو ما حدا السلطان إسماعيل إلى إرسال رسالة إلى ابنه زيدان يهنئه بالنصر ويعده بعدم قتل الأمير الثائر<sup>(٩٤)</sup>.

غادر محمد العالم تارودانت متوجهاً إلى مكناس في شهر صفر من عام ١١١٨هـ نهاية مايو ١٧٠٦م، بصحبة موكب من خمسمائة من الخيالة، وكان طوال الطريق مقيداً بالسلاسل. وعندما اقترب من العاصمة مكناس خرج والده لملاقاته وبصحبه ألفين من الفرسان وألف من المشاة واستمر حتى جاء عند نهر بهت، بالقرب من مكناس، منتظراً وصول ابنه الأسير، وكان اللقاء في ١٥ يونيو. وعندما شاهد المولى محمد أباه على الجانب الآخر من النهر توقف عن المسير

(92) Ibid, p.693.

(93) Defontin-Maxange: *Le grand Isma'il*, pp.261-262.

(٩٤) المخزن وسوس، ص ٢٢٣.

وبدأ يصلح من حاله استعداداً لاستقبال والده، وعندما عبر السلطان النهر حلت القيود عن ابنه ثم نزل عن دابته وقبل أقدام والده طالباً منه العدالة. قال له السلطان: "الحمد لله أنني تمكنت من رؤيتك" وبعضهم يذكر أنه لم يجبه بشيء<sup>(٩٥)</sup>.

سكتت معظم المصادر المغربية عن تفاصيل ما جرى للأمير محمد العالم منذ قبض عليه في عاصمته تارودانت حتى لقائه والده وتنفيذ العقوبة بحقه. وقد أشار القادري في تراجمه إلى أن محمداً العالم وصل إلى مكناس مصفداً بالحديد وأن والده خرج للقائه بوادي بهت ومعه العلماء وجميع وزرائه وأتباعه وحشمه، فجعل السلطان يسأل العلماء عن حكم الله فيه فأجابه من كان يكره ويبغض المولى محمد من طلبة العلم المتعصبين بقطع يده ورجله من خلاف، وتلا عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ الآية<sup>(٩٦)</sup>. ففعل به ذلك<sup>(٩٧)</sup>.

تقول بعض الروايات: إن السلطان إسماعيل عندما خرج للقاء ابنه كان قد أخذ معه ما يلزم من قطران وأدوات الغلي ليحرق ابنه ولكن العلماء والأشراف حذروه من عمل كهذا، فعدل عن ذلك وأمر بقطع يده اليمنى ورجله اليسرى. لأن اليد اليمنى قد سلت السيف ضده والرجل اليسرى امتطى بها سهوة الحصان للثورة على والده<sup>(٩٨)</sup>. وعلى النقيض من ذلك نجد بعض الروايات تذكر أن السلطان كان قد

(95) *Relation de la Mérci*, pp.693-694.

(٩٦) سورة المائدة، الآية ٢٣.

(٩٧) نشر المثنائي، ١٦٧/٣ - ١٦٨.

(98) *Relation de la Mérci*, p.694.

تردد كثيراً قبل تنفيذ الحكم وسأل العلماء هل كان يكفي أن يقطع له أصبغاً من الرجل وأصبغاً من اليد؟ ومع أن هؤلاء العلماء قد وافقوه على هذا الرأي فإن زيدانة أصرت على تنفيذ الحكم محذرةً من أنه إذا عفا عن المولى محمد سيعود من جديد للثورة وغير بعيد أنه سيطيح بوالده. ولهذا فقد نفذت العقوبة في ابنه مع كونه غير راضٍ عن ذلك<sup>(٩٩)</sup>.

جميع المصادر التي تناولت الحديث عن نهاية ثورة محمد العالم تتفق على أنه قد نفذت عقوبة قطع اليد والرجل في يوم الرابع من ربيع الأول عام ١١١٨هـ الموافق ١٦/٦/١٧٠٦م<sup>(١٠٠)</sup>. لم يمكث هذا الأمير طويلاً بعد هذه العقوبة، فقد مات متأثراً بجراحه في يوم الخامس عشر من ربيع الأول من العام نفسه<sup>(١٠١)</sup> أو السادس عشر منه<sup>(١٠٢)</sup>.

وتذكر بعض الروايات أن السلطان إسماعيل قد ندم ندماً شديداً على تنفيذ العقوبة بحق ابنه، وأنه كاد أن يقتل السياقين الذين نفذوا فيه حكم العدالة وعدّهم مذنبين لأنهم أطاعوا أوامره. وكانت الملكة السوداء والدة زيدان تزور محمداً العالم عندما كان يعالج جراحه في مكناس وهو يعلم أن زيارتها له ليست من أجل الاطمئنان عليه وإنما هي

(99) J. de Léon: *Vie de Moulay Isma'il*, p.20.

(١٠٠) نشر المثاني، ١٧٠/٣: تاريخ الضعيف، ص ١٨٩: الحياة الأدبية، ص ١٤٨.

(١٠١) نشر المثاني، ١٧٢/٣: عباس المراكشي: الإعلام، ١٦/٥: تاريخ الضعيف، ص ١٨٩.

(١٠٢) التحلل البهية، ٢٨٨/١: المخزن وسوس، ص ٢٢٢.

تتمنى موته، ولذلك طلب منها عدم تكرار زيارتها له؛ لذلك توجه أصابع الاتهام إليها بأنها قد دست له السم ليموت في ٢٧ يونيو من عام ١٧٠٦م، ولم تفلح محاولات بعض الجراحين المسيحيين لإنقاذ حياته<sup>(١٠٣)</sup>.

إن النهاية المأساوية للأمير محمد العالم قد خلفت ردود فعل مختلفة واستاءت فئة العلماء من ذلك، فمنهم من هرب إلى المشرق، ومنهم من وقع في الأسر ثم قتل في مكناس، ومنهم من سبق قتله في أثناء حصار تارودانت. ومع ذلك فإن السلطان إسماعيل لم يطبق حكمه إلا في بعض الحالات التي أراد منها أن تكون عبرة للآخرين. أما الذين كانوا ضمن حركة محمد العالم كأخيه الشريف وأبي النصر والقاضي محمد أمزوغار وغيرهم فقد غض الطرف عنهم تقادياً لمشكلات قد يصعب تلافيتها. كما أن ابنه زيدان قد احتج على عدم وفاء والده بوعده بالعمو عن أخيه، لذلك رفض المجيء إلى مكناس وأعلن الثورة على والده بدوره في السوس، وهذا دعا السلطان إلى أن أوعز إليه من قتله هناك، أما أبو النصر فقد أنعم عليه بولاية السوس<sup>(١٠٤)</sup>.

(103) *Relation de la Mérci*, p.695; J. de Léon: *Vie de Moulay Isma'il*, p.21; Defontin-Maxange: *Le grand Isma'il*, p.263

(١٠٤) المخزن وسوس، ص ٣٢٤؛

*Relation de la Mérci*, pp.696-698.

## الخلاصة:

واجهت السلطان إسماعيل ثورات عديدة، وبخاصة في منطقة السوس، أي المنطقة الجنوبية الغربية من بلاد المغرب. ولم يتوان السلطان في تتبع تلك الحركات المناوئة وقطع دابرها حتى لو استمرت المواجهات معها عدة سنوات. وكانت أشد الحركات المناوئة لحكم السلطان إسماعيل، ثورة ابنه محمد العالم في عام ١١١٢هـ / ١٧٠٠م، التي استمر في مقاومتها حتى عام ١١١٨هـ / ١٧٠٦م.

لقد أعلن محمد العالم خلال ثورته أنه يريد السيطرة على المغرب وعزل والده عن السلطة، متذرعاً بأسباب متعددة، تتمثل في عدم موافقته على مسألة تجنيد بعض فئات المجتمع من العبيد، التي فرضها السلطان إسماعيل برغم معارضة شريعة كبيرة من علماء عصره لذلك. كما استغل محمد العالم فرصة انشغال والده بحروب الأتراك الذين هزموه وأضعفوا جيشه وقوته. فوجدها ابنه فرصة مواتية لاستثمارها من أجل الثورة عليه، مستغلاً بذلك تشجيع كثير من قبائل منطقة السوس وبعض العلماء المناصرين والمؤيدين لرأيه في مسألة تملك العبيد، الذين زينوا له أمر الثورة ودفعوه إلى استغلال وقتها المناسب. مدفوعاً في ذلك أيضاً بالحقد والغل على كثير من حاشية والده الذين ما فتئوا يوغرون صدر السلطان عليه مع براءته من كل ادعاءاتهم وعجز والده عن رد اعتباره. وعلى وجه الخصوص من نساء القصر والمقربين للسلطان.

استغل محمد العالم طبيعة المنطقة التي كان يحكم فيها خليفة لوالده وكونها بيئة صالحة ومناسبة لمساندة الثورة، فأعلن ثورته على والده عندما تهيأت له أسبابه.